آفاق

«ملحق العدد 22»

ملحق العدد 22 الخميس 1 جمادى الأولى 1442هـ الموافق 17 كانون الأول/ديسمبر 2020 م

1

جريدة إلكترونية شهرية ثقافية منوعة تصدر عن مؤسسة البيان للعلوم والمعرفة

عزرائيل، بريء من تهمة القاتل

بقلم الكاتبة : سَارة مِيلاد الزّيتون

(قصة طويلة، لا أنصح المللولين بقراءتها)

ابنتي الوحيدة مراهقةٌ لديها شغفٌ مختلفٌ عمّا أريده لها في المستقبل، فأنا أودُّها من العلماء وروّاد الفضاء، أو طبيبةً إن لم تحصِّل درجاتٍ تكفي لهذه الأفرع، وقلبها -هذه الحمقاء- كان يلهفُ للفنِّ والأدبِ السّخيف والقراءة والكتابة وكأنها تقوم كلَّ يومٍ بدورة محو أميّة مصغّرة، أو أنها لا تزال طفلةً لا تَعي أهمية المستقبل، تشاجرنا كثيراً في هذا الموضوع، وانتهى بها المطاف لتتبرقع بالكدماتِ والجروحاتِ المدمّاة من قبل أبيها، حيث إنّني كنت أوّل أمٍّ لا تدافعُ عن فلذة كَبِدها بل تشاهدها وهي تتشمَّع ببطء..

لقد كان صدى عويلها يصدحُ في الأرجاء، وقلبها ينضحُ قهراً، تدنّى تحصيلها العلمي بشكلٍ كارثيٍّ، حتى طردتُها من المنزل لتعيش في مكان أرى أنها تستحقُّ العيشَ فيه: الطريق... موطئ أقدام الكلاب.



نعم، صرت أستحي بها وأتحسّر، لماذا لم تكن لدي صبيّةٌ يغزو اسمها العالم على أنها أول من زار المريخ مثلاً، أو أو من اكتشف علاجاً للسرطان أو مؤخراً فعالاً للزهايمر؟؟

قتلتُ ابنتي روحياً، هي الجانية على نفسها ذلك لأنها فعلت المثل بقلب أمها.

★★★

سنونٌ مرّت كالغُبارِ، بعد خمس أعوام من طردي لها شاهدتها على التلفاز صدفة في مقابلة صحفية مع وزارة الثّقافة بعد فوزها بالمرتبة الأولى في مسابقة أفضل كاتب وكاتبة على مستوى الوطن العربي وقد سألوها كيف ثابرت لتصل إلى ما هي عليه، فأخبرتهم أنها "تيتّمت" وأصبحت مشرّدة، إلى أن عثرت على مسكنٍ وبدأت تطور ذاتها بدعمٍ من بعض الأساتذةِ

عزرائيل، بريء من تهمة القاتل

والأصدقاء إلى أن حققت مرامها المرجو، وقد واجهت شراً قديماً لم يكن بمقدورها كبحُ جماحِه لكنها قاومت ظروفها.

النّدم نزل على التّامور كالصّاعقة حتى أوشك أن ينفضَّ، والغصَّةُ تجمَّعتْ في حلقي إلى أن كادت تنقطع حبال الحُنجرة من تراكماتها الغليظة، العَبَراتُ عَلقتْ عند طرَف الجفن، كيف لمجرمة أن تصرُخَ باكيةً؟

نعم لقد ندمتُ واشتقتُ لها، هرعتُ إلى غرفتها المهجورة منذ زمن لعلّي أجد شيئاً أو شيئين مما دوَّنتْ يداها، فوجدت ورقةً كتب فيها:

"طموحي دراسة الصيدلة لأجل أمي، ولأني أحب هذا النوع من الدّراسات التي تشملُ الكيمياء وعلوم الأحياء، ولكن حلمي الأكبر أن أصف الواقع تسربل السّواد جوخاً، الحياة تحلَّت بمجوهرات الآمال والتحرر، والموت صقل من الوهرة والخوف سلاسل يزين عنقه بها ويقيد بها طمأنينة العالم.

وأخيراً حان وقت اللّقاء الخطير الذي سيحدد: 'من الأجمل؟ ومن يجب التشبّث

الكاتبة الصغيرة

فيها أقصوصةٌ قديمةٌ مما خَطَّت:

به والصّراع في سبيله؟ الحياة أم الموت؟'.

تناقشا طويلاً وانتهى الأمر بمشهدٍ لا يصدق!

إنهما متّحدان، متقابلان، متحالفان، ويتبادلان القُبَّل أيضاً!

وأنا المراقب المحتار صرخت متعجباً:

-ما هذا؟! إنكما نقيضان؟

هل رحتما للواقع لكي يكلِّلكما أم لكي تفهمونا لماذا نهابكم؟!

يمنّا وجهاهما نحوي ببطء، وضحكا باستهزاء قائلَين:

)الموت(: ستعرفنا من خلال برهان سنحكيه لك، لكن إن كان قلبك ضعيفاً اذهب إلى دنيا الورود خاصّتك، ولا تعد إلى هنا.

-لا، أريد أن أسمع.

· وإن كنت ستنصدم؟

-نعم.

· جوابٌ حسنٌ. من بعدكِ يا سيّدتي.

)الحياة(: لا لا تفضل أنت بالكلام.

· شكراً لك يا صاحبة الرونق .

والآن، أنصت يا غلام:

يعيش البشر على يقين أنني القاتل وحدي هنا، ذلك لأني المسبِّبُ لدفن أحبّتهم في جُحرٍ عميق وافرّقهم، يظنون أنني هنا



فقط لسحب زفراتهم، ولا يقدّرون أنّني أنقذهم من شرٍّ أعظمَ من انتقال الرّوح إلى ربِّها.

أتعلمُ أنّي مكّارةٌ كبيرةٌ، فأنا لم أخبر العالم أنني بجزءٍ منّي أقتلهم؟

رغم أنهم لم يبرحوا مبتعدين عن أعزائهم، ولم يتحلّل من جسدهم ولو قطعةٌ من جلدهم..

لكنَّ الواقع صديقي المقرّب وهو مشاكسٌ يحب افتعال المشاكل وتجربة القلوب.

عزرائيل، بريء من تهمة القاتل

أجل صدّق، أنا أُميتُ نفسيّةَ البشر، وهذا أشنَعُ من النّوم دون تنفس.

فعلاً كما صرَّحَ حدسُ الموت، سأنصدم، ولكن، ما علاقة هذا باتحادهما؟!

· وهل تسأل نفسك الآن ما علاقة هذا باتحادنا، أليس كذلك؟

-وكيف تداركتما هذا؟!؟!!

عتمة عقلك تشبه قصة عجوز يائسة تكاد تكون مشعوذة، كان الجميع يظن أنها من أسياد النَّحس لشدة قبحها، ولأنها غرست ذعراً في الأفئدة كمن زرع شجرة زيتون معتّقة وفاسدة، كبّلتْ ذاتها بأغلال الشؤم، لم تعرف نور القلب أبداً.

ذات يوم صعدتْ إلى سفحِ جبل منعزل ليلاً وبدأت تبكي، فواساها نسيمٌ عليلٌ سائلاً:

▪(النّسيم): ما خطبك، لماذا تزعقين



وتنعِقين؟؟ لقد أبكيتِ أعيناً كثيرةً واليوم أمطرتْ مقلتاكِ الوابلَ؟

(العجوز): كنت سيئة لكن ليس إلى هذا الحدّ، لكن المجتمع كَرهَني وحكم عليَّ بأني قذرة ومقزِّزة لبشاعتي قلباً وقالباً، كنت أستحق تأديباً لكن لم أرده أن يكون المكوث في شواغر الحياة على قيد الموت، لماذا لا أرتاح ولا أعيش نعيم الحياة في شواغر الموت؟

أريد أن يطلق سراحي من أصفاد الأرض،

الموت والحياة

لأحيا في السماء والجنة رجاءً!

▪إذن إذن، أنت على إيمانٍ بأن في الحياةِ موتٌ وفي الموتِ حياةٌ، أليس كذلك؟

=بلا شك.

▪سأساعدك قليلاً، تخيّلي أنك بعد فترةٍ ستتوفّين، كيف ستقضين بقية أرقام عمرك في هلاك الأرض؟ (أو الحياة كما نعرفها)

=(العجوز متعجبة وكأن فكرةً خطيرةً تسلّلت لخلايا مُخّها): إنّك ملهمٌ بحق أيها النسيم!!

عادت سريعاً إلى كوخها المخيف، وفي شروق اليوم التالي جمّلت نفسها وجعلتها بأبهى طلّة، تزيّنت بأفضل ما لديها من مجوهرات وأقراط، وتسروَلَت أجمل ما لديها من ثياب لتبرز مفاتن جسدها، وابتسمت لأول مرة بارزة مفاتن روحها، وسرَّحت شعرها الأشعث، اعتراها فرحٌ غريبٌ حقّاً، تمشي ملقيةً السّلام على الجميع، وبقيت على هذا الحال حتى وافتها المنيّة بعد أسبوع، لكنها رحلت بوجه بسّام.

-وما علاقتي بهذا؟

· الرابط العجيب بينكم يا ولد، عندما يكون تفكيرك محدوداً على ما تعرفه وما أنت عليه دون التّفكير في تفاصيل الأمور وفلسفاتها العميقة المتشعِّبة، لن تعاين الحياة الحقيقية المُحيِّية، بل ولَن تفهَمَ



عزرائيل، بريء من تهمة القاتل

طموح

الجُزءَ المُبانَ مِن سرِّ الموت.

نحنُ مُتَّحِدان منذ لُعنَتِ الأَرض، فاذهب وناقش عقلك وتعلم من بنات أفكارك، لا من تلخيص الدروس للمذاكرات وبصمها، ولا من مخارج أفواه المعتوهين أصحاب النصائح البالية.

-قبل أن أرحل عنكم، لماذا فرحت العجوز؟

· أفعلاً لم تفهَم؟

-لا.

· إذن منطِقها لوحدك، ودعنا نعيشُ لحظاتنا سويّةً ونتبادل الأدوار والحُليِّ، أريد أن أجرب المخمل الأبيض على ادلهمامي، والحياة أيضا تريد أن ترتدي جوخاً متفحّماً على بياضها النّاصع، كفى مضيعةً للوقت.

أنا المراقب الغبي، عُدتُ من مقرّ الخيال والفانتازيا اللذين مدّاني بهذه الأفكار والخواطر، صلّيتُ قليلاً وبدأت أتأملُ



بعيداً وأخمِّن:

أفرحتِ العجوز لأنها عثرتْ على نقيضٍ للسَّلبية وما اعتادتْ عليه؟

أم أنها أيقنتْ بأنها تشتكي للموت لكي يُشفِقَ عليها وينقِذَها؟ ".



عندما قرأتها شعرتُ بالعرفان والاعتزاز والفخر ولكن الحسرة كانت رابعهما، كبرتُ بسرعةٍ وكبرت معي تجاعيدُ وجهي، أصبحت لا أرى من شدَّة قُبحي، شابَ شَعري وصارَ أشعثاً، أنا الآن عجوزٌ شمطاء،

كل من يراني يضحكُ عليّ أو يتّهمني بأني ساحرةٌ منحوسةٌ.



هربتُ بعيداً للمكوث عند سفح الجبل، وبنيت كوخاً كئيباً هناك، وخرجت أَعولُ للسّماء في كل ليل أدهمٍ وأخبرها بحالي، إلى أن كلمني صوت غريبٌ ولطيفٌ في ليلةٍ هادئةٍ، طالباً منّي أن أتخيّل أني أعيش الآن آخر أيام حياتي، كيف ستمضي هذه الفترة؟ اعترتني سعادة حقيقيّةٌ عندما أوهمتُ روحي النّادمة النّادبة أن ابنتي كتبتْ قِصّةً كنتُ أنا أحد أبطالها.

